الأثر

مجلة تراثية فصلية محكمة

المجلد التاسع عشر العدد الثاني ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

الطبري تحصيله الثقافي

تاريخ الفن الاسلامي

WWW.ATTAWEEL.COM

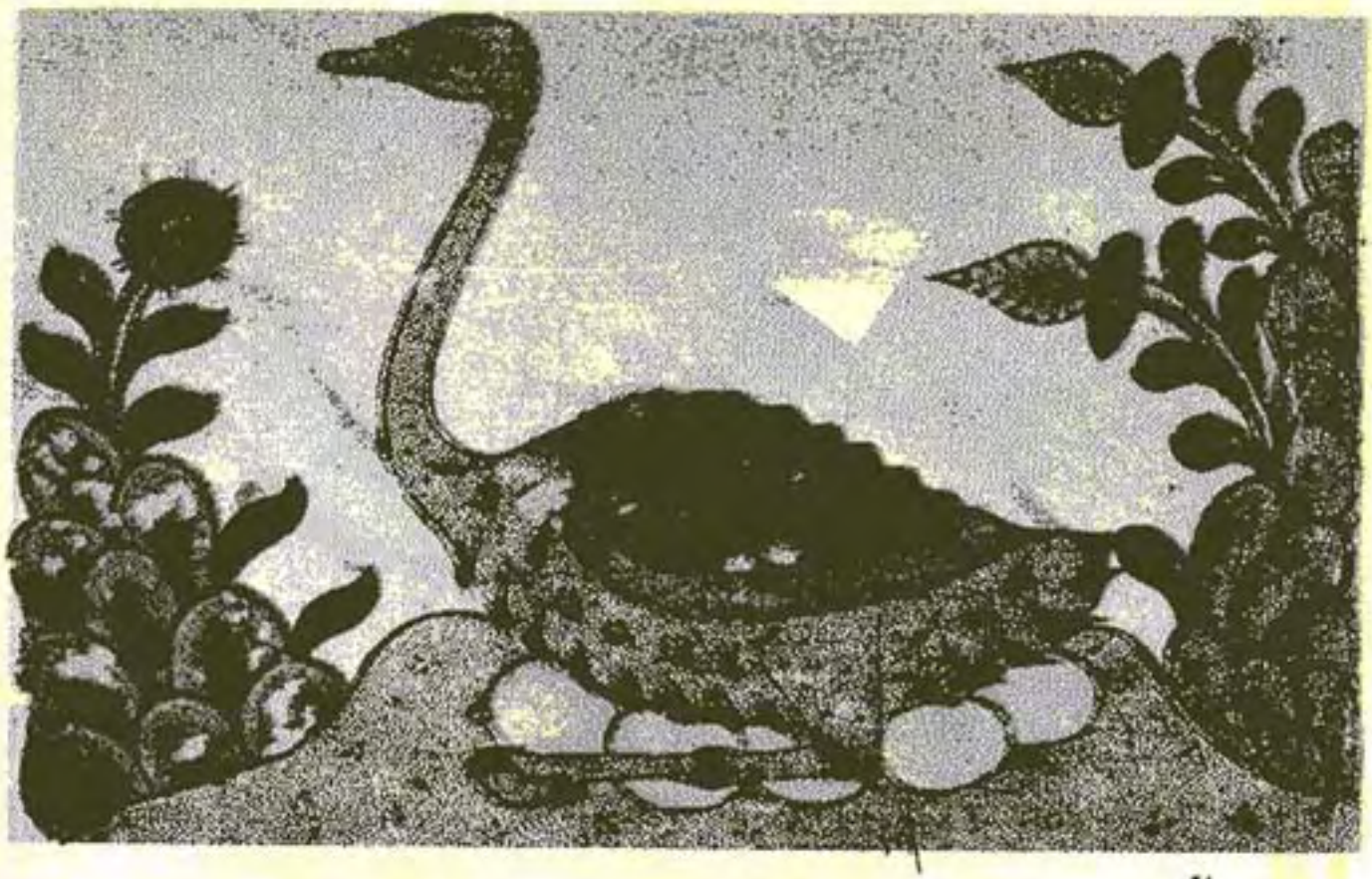

أسعد الديب محمد

منزلة المتلقي في نظرية الجرجاني النقدية

دراسة
حاتم الصكر
مجلة الاقلام

«... إنّ هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لايبرز لك إلا ان تشقه عنه، وكالعريس المحتجب لايريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم مالمْ فكرٍ يُهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولاكُ خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل احد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من اهل المعرفة...»

اسرار البلاغة ـ ١٢٨

١ ـ مقدمة: في المعنى والتلقي

١ ـ ١ يهدف هذا البحث إلى بيان منزلة القارئ في الفكر النقدي الذي ضمه كتابا الامام عبدالقاهر الجرجاني: (أسرار البلاغة) و (دلائل الاعجاز) اللذان تسمح قراءتهما المتأنية بالتعرف إلى ملامح نظرية نقدية مميزة فالجرجاني يؤكد فيها نزعته في نظرية النظم، والانتصار للمعنى، وردّه مزايا الفصاحة والبلاغة إليه، لا إلى اللفظ. فليس النظم شيئاً «إلاّ توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم». [٢: ٤٠٣، ٤٠٤] ثم إن هذه المعاني ليست مما يُدرك بالنظر المجرد، وإنما يتطلب إدراكها وتمثلها «إعادة النظر» والتأمل والفكر والرويّة والتذكر [١: ١٤٧]. فإدراكها مثل نظمها يستوجب جهداً ومشقة وعملاً.

فإذا كان الناظم قد غاص على معانيه، وتحمّل المشقة الشديدة «ولم ينل المطلوب حتى كابد منه الأمتناع والاعتياص» فإن (السامع) سيعظّمه ويفخّمه لما علم من تعب نائله، والنَصب الذي احتمله ناظمه من أجل إدراكه. فيكون للتعظيم والتفخيم (من القارئ) ما يكون «المباشرة الجهد» في المعنى المؤتى (من الناظم) [١: ١٣٣].

١ ـ ٢ وينبني على هذه الدعوة؛ افتراض وجود أغلفة تحيط بالمعنى؛ ليس اللفظ إلا واحداً منها؛ واختراقه لايعني وصولنا إلى المعنى.

يرى الجرجاني أن وراء الألفاظ التي يجعلها المتكلمون «زينةً للمعاني وحليةً عليها» معاني أخرى غير تلك التي تُفهم من ظاهر اللفظ. وهي مايسميها (معنى المعنى) [٢: ٢٠٣].

فكأن الاغلفة تتدرج عنده كالآتي:

ألفاظ ← معانٍ مفهومة ← معنى المعنى

وبذلك يقابل الجرجاني اللفظ بالزينة أو الحلية.

ويقابل الجسد بالمعنى الأول المفهوم من ظاهر اللفظ.

ويقابل الروح بالمعنى الثاني الذي يُفضي إليه الأول، فيكون الترتيب أفقياً وعمودياً كالآتي:

لفظ ← زينه
↓ ↓
معنى أول . . . جسد
↓ ↓
معنى المعنى . . . روح

ويصبح لزاماً على المتلقي أن (يغوص) لأستخراج الدرة التي تضمها الصدفة، بجهدٍ يعادل مابذله الناظم في إخفائها وراء غلافيْ اللفظ، والمعنى الأول الذي يتداعى

من ظاهر اللفظ.

بهذا يخالف الجرجاني الرأي النقدي السائد في (اللفظ والمعنى) الذي يشبّه الألفاظ بالأجساد، والمعاني مطلقاً ـ بالأرواح؛ كقول ابن رشيق: «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم..»، وكقول العتابي: «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح..» [١٠: ٢٢٢، ٣١٢] وكقول ابن طباطبا عن بعض الحكماء: «الكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه.» [٤: ١٤٠]

ونستعير ألفاظ الجرجاني لتلخيص فكرته عن معنى المعنى:

«نقول المعنى ومعنى المعنى. نعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ والذي نصل إليه بغير واسطة. وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر..» [٢: ٢٠٣] ولاشك في أن إزالة أغلفة المعنى، والغوص عليه؛ مهمة منوطة بالسامع: الذي يأخذ في بحثنا اسم (المتلقي) لأنه أعم. كما أنه يشمل صفة سامع النص وقارئه معاً، احترازاً للاجراءات الاتصالية التي قد تفرض أعرافاً محددة على تلقي النص، فمقام المشافهة ـ كما نعلم ـ يعارض القول بكلية النص لأنه يحيل احتواء المعنى المبثوث في ثنايا النص؛ والمختفي ـ في نظرية الجرجاني ـ كالروح وراء الجسد وزينته.

١ ـ ٣ ثمة من يقول بأن «التركيز على المتلقي، وجعله مكوناً من مكونات النص الأدبي، ليس له نظير في نظريات النقد القديمة، وهو نهج جديد تماماً...» [٣: ٢٢]

وهذا القول يغفل تلك الاشارات الصريحة في تراثنا النقدي الى منزلة المتلقي؛ ودوره في استكناه الظاهرة الادبية (والشعر تحديداً).

وإذا كان النقاد قبل الجرجاني لم يتوقفوا طويلاً عند (المتلقي) فإنهم منحوه اهتماماً متضاوتاً عبر تأكيدهم ضرورة (الفهم) والتأمل أو ترجيحهم المعنى على اللفظ. وذلك أمر لا يظهر إلا بالقراءة. ولكن هؤلاء النقاد تحدثوا عن المتلقي كائناً صنمياً خارج النص. يصله النص بعد أن انتهى وآستقر. وليس للقراءة؛ فعلاً ثقافياً وممارسة نقدية؛ أي دور في إظهار معانيه الكامنة. هذا المتلقي الصنمي ليس إلا مستلماً للنص؛ أو مستهلكاً له؛ يُحتال عليه لافهامه واستمالة قلبه. وهو ماتعبر عنه لفظه السياسة) تعبيراً موفقاً.

وأحسب أن مقام (المشافهة) فرض هذه النظرة للمتلقي. وهذا يُرينا ماتتركه وسائل الاتصال من آثار في النظرية الشعرية وجمالياتها بوجه خاص.

فقوانين مثل (مراعاة مقتضى الحال) و (لكل مقام مقال) و (مسابقة حرس الالفاظ معانيها إلى الآذان) ليست إلا مظاهر للسياسة التي اشترطها النقاد لتحقيق الافهام وثني الأعناق إلى النص المجهور. [٨: ٥٠].

١ ـ ٤ على العكس من ذلك سنجد أن الجرجاني ـ أسوة بدعوة القرآن للتفقه والتعقل ـ يمد الظاهرة الشعرية إلى المستقبل (بكسر الباء) أو المتلقي؛ وكيفية تعامله مع النص، واقتراح التدبر والتأمل والنظر لازالة أغلفة النص.

وسيكون أمام هذا البحث هدف قراءة فكر الجرجاني؛ وتأشير مناطق الفهم المكونة من المتلقي. ثم تقويم أهميتها في إظهار شعرية النص من الكمون ـ داخل الألفاظ ـ إلى التحقق في المعاني الثواني المقترحة.

٢ ـ المتلقي في النقد الحديث

سيكون علينا للوصول إلى منزلة المتلقي في نظرية الجرجاني أن نبدأ من النهاية. أي أن نتابع المصطلح والمفهوم والظاهرة من عصرنا؛ حيث استقرت واكتسبت أهميتها؛ رجوعاً إلى كتابي الجرجاني حيث نعتقد أن للقارئ منزلة ودوراً واضحين.

ولانريد بهذا أن (نُسقط) على التراث النقدي نظريات حديثة؛ أو نتمحل الحجج والاسباب لاثبات سبقه للنقد الحديث؛ فليس مطلوباً من نقدنا العربي الموروث أن يجيب عن أسئلتنا المعاصرة؛ المستجدة.

كما أننا لانريد تقويل التراث وإنطاقه بما لم يقله، في تصور التفوق أو الانجاز الأعظم بعدّ التراث مرجعاً نهائياً شاملاً.

لكننا - في سياق فحص تاريخ التقبل والتلقي الجمالي الذي هو تاريخ الظاهرة الادبية (والشعرية) في رأينا، وموضع الصراع والجدل. نريد أن نضع أيدينا على مايمنحنا تراثنا النقدي المشرق من وهج وإضاءة، تعزز قناعتنا بأن المهمة الفنية التي ينجزها الشاعر، تظل موجودة بالقوة مالم تُظهرها القراءة إلى الوجود بالفعل. أي تمنحها التحقق الجمالي بالتلقي.

٢ - ١ هيمن المؤلف والمجتمع والصفات النفسية وسواها على توجيه النص زمناً طويلاً. ثم جاءت المدارس البنيوية لتقتل المؤلف وتعتبر النص الأدبي بنية لغوية مغلقة لا علاقة لها بسياق الانتاج والتلقي، مما أثار ردّ فعل آخر «يرد الاعتبار إلى القارئ.. بما هو العنصر الوحيد الجدير بالبحث..» [٦: ١٣].

ويمكننا بهذا أن نسجّل بزوغ عصر جديد في تفسير الظاهرة الشعرية هو عنصر القارئ، وبروز سلطة جديدة هي سلطة القراءة. فبالقراءة يعيد المتلقي إنتاج النص مُظهراً شعريته. فالظاهرة الأدبية - يقول ريفاتير - «ليست إلا علاقة جدلية بين النص والقارئ..» [٩: ٢١٤] وهي ليست علاقة توافق أو مطابقة بالضرورة.

فالقارئ لم يعد ذلك المستهلك الآلي أو المستقبل السلبي الذي تصل إليه رسالة النص دون ان يكون له دور في إعادة تشكيل محتواها.

إن ثمة شاغراً في «النظام الاجمالي للنص» يؤدي ملؤه من قبل المتلقي إلى تفاعل أنماط النص.» - كما يقول آيزر في (فعل القراءة) [١١: ٤٦] مؤكداً ان خطط القارئ لاتتفق بالضرورة مع خطط النص، بل ان غياب التوافق بين النص والقارئ هي التي تحقق الاتصال في عملية القراءة. وهي التي تحدد استجابة القارئ فيما يبدو لاحقاً من مفاهيم المدرسة التي عرفت باسم (جمالية التلقي) أو (استجابة القارئ).

إلا ان التنويه بالقارئ ودوره في إظهار شعرية النص اعتماداً على مالايقوله النص أو تنبّه الألفاظ، ليس جديداً تماماً. إننا نقرأ لاليوت مثلاً قوله: «إن وجود القصيدة هو دائماً في منطقةٍ مابين الشاعر والقارئ.. ولاتقتصر على مجرد مايريد الشاعر أن يعبر عنه..» [٥: ٣٨] وهو قول يصاغ في مقالة شهيرة لسارتر (لمن نكتب) بعبارة اخرى تشبه العمل الأدبي بخذروف دوّار في حركة مستمرة بين المؤلف والقارئ.

ونستطيع أن نؤكد حضور القارئ مفتاحاً للبحث في الآثار الأدبية من خلال مدارس كثيرة، مختلفة المنازع. ففي علم اجتماع الأدب يُوجّه النظر إلى العناية بالظاهرة الأدبية بعد نشر الأعمال ووصولها إلى القارئ الفعلي خارجها.

كما يصنف التوسير أنماط القراءة متوقفاً عند (القراءة الكشفية) التي تتعامل مع النص. وينبهنا تلميذه بيير ماشيري إلى «مالا يقوله النص» رافضاً تحليل النص كما لو كان مغلقاً على نفسه.

وفي البنيوية ذاتها، جرى التأكد على القراءة المنتجة للنص المقروء. فالقراءة حسب تودوروف مسار في فضاء النص، لاينحصر في وصل الاحرف..، بل يفصل المتلاحم ويجمع المتباعد.. ويشكل النص في فضائه لاني خطيته.

٢ - ٢ ولكن. ما القراءة؟

أهي مسحٌ بصري لسطح النص؟ أم إرجاع آلي لألفاظه إلى معانيها؟

أهي تشكيل لمعانٍ محددة مبيتة سلفاً؟ أم استنباط لمعانٍ غير معلنة؟

إن القراءة فعل. والقارئ فاعل. يتعدى الفعل عبر جسد النص الذي تشيده الألفاظ، ويخترق سطحها بحثاً عن أعماقها.

إن في النص نداءً. والقراءة تلبية لهذا النداء. فالقراءة ليست فعلاً انعكاسياً للكتابة أو عملاً بسيطاً يؤديه القارئ بأن تمر العينان على حروف النص.. إنها فعل

خلاق يصبّ على الأثر المقروء احتمالات وتفسيرات ومعاني غير محسبة.

فالقراءة، غدت، كالكتابة نشاطاً إبداعياً يعيد صياغة النص عند تلقيه. لأن النص كفّ عن تحديد معنى ثابت في ذهن متلقيه. بل هو يوحي له فحسب. ينادیه نداءً غامضاً فيستجيب له وفق إيحاءاته أو ما يتشكل منها في وعي المتلقي الذي لم يعد (مرسَلاً إليه) على الضفة الثانية في شاطئ النص. لقد عبر إلى النص وأندمج في أفقه.

إن المتلقي منتج متفاعل. ليس النص عنده بنية مستقلة عن استقبالها، لايمكن وصفها إلاّ من داخلها. بل تتشكّل صلته بها ووعيه بأفقها من ترسمه إيحاءات جديدة ينادي بها النص نفسه لمن يقترب منه وفق معطياته لا الجاهز من الأفكار.. وهذا سيحرر التفسيرات ويعدد القراءات ويفتح النص لمتعة قراءة لاتنتهي.

٢ ـ ٣ وجدير بنا الآن أن نفرق بين مستويات القارئ لنحدد من بعد مستويات القراءة.

فمفهوم (القارئ) أو المتلقي عموماً يرد في معان عدة. يمكن تنميطها كالآتي:

١ ـ القارئ الافتراضي أو المتخيل: وهو الذي تشكّله مخيلة الكاتب وهو يبدع نصّه. ويفترض وجوده لكي يوصل إليه رسالته. وهو يضغط على بنية النص ويوجهها حسب درجة حيمته في وعي الكاتب.

وقد أشار الشكلانيون الروس مبكراً إلى هذا النوع من القارئ (أو المتلقي)، يقول توماشفسكي: «إن صورة القارئ تكون حاضرة باستمرار في وعي الكاتب، حتى ولو كانت مجردة...» [١٢: ١٧٥] وهذا القارئ يفرض تقاليده التي تشكل مهيمنة قوية في النص رغم وجوده خارجه قبل انتاجه.

٢ ـ القارئ الكامن في النص أو الضمني: وهو الذي يتحقق في النص من خلال استجابات فنية، لايمثل النص إلا وسطاً لعبورها أو جسداً تتحقق من خلاله.

ويمكن التمثيل لوجوده بالأشكال والأنماط المكرّسة التي يدافع عن تقاليده من خلالها. أي من خلال تكرارها في الأعمال والنصوص المنتجة.

٣ ـ القارئ الخلاّق أو المنتظر الذي يشكّل النص بالقراءة، ويحدد باستجابته الجمالية الشكل النهائي للنص. إنه يغور وراء سطحه وداخل أبنيته لاستكمال صورته الناقصة. يقرأ الفراغ والبياض. يستهدي بالموجّهات القرينة (العناوين والاهداءات والتواريخ والملاحظات والرسوم) ويستكشف بؤرة النص أو نواته ليحدد قرب الصور منها أو بعدها عنها. ثم يؤوّل ما استكشف وصولاً إلى ايحاءات نصية لامعان نهائية.

ونستطيع الآن تحديد جغرافية هؤلاء القراء الثلاثة قياساً إلى النص المركزي المتحقق:

فالقارئ الأول خارجي، قبل ـ نصّي.

والثاني داخلي. مندرج في بنية النص أو ضمن نسيجه وخطابه.

وأما الثالث: فهو بعد ـ نصّي: يتجه إليه فعل الكتابة ليوازيه بفعل القراءة. إليه تتوجه الخطابات وتجد مصداقية عناصرها.

٢ ـ ٤ وفي تراثنا النقدي وجدت تلك الأنماط من القراء أشكالها وتحققاتها: استجابة لمقال المشافهة أو حال الاستماع أو مقام الصلة (بين الشاعر ومستمعه الأعلى: ممدوحاً أو متغزلاً بها..) وكان لها مظاهر فنية (داخلية) قبل أن تفرض إلى قواعد التلقي الجمالي.

فالرواة وجمهور الأسواق والمنافرات والندماء ورفاق السفر والنساء (الحقيقيات والمتوهمات) والأمكنة، والأزمنة المبتة بالسفر والهجران والموت الحقيقي والنكبات أو الكوارث الطبيعية، ليست إلا قراء (أو متلقي) خطاب الشعر الشفهي..

يتخيلهم الشاعر أو يتسللون إلى نصّه فيفرضون أعرافاً وتقاليد فنية أو ينتظرون على الضفة الأخرى.

٣ ـ المتلقي في نظرية الجرجاني

لايمكن لدراسة كهذه أن تحيط بأبعاد نظرية الجرجاني في نقد النص الشعري، فضلاً عن منهجه في إعجاز القرآن.

إلا اننا بانتخابنا محور (المتلقي) واستكشاف ستراتيجيته في عمل النظرية النقدية للجرجاني، نستطيع التنبيه إلى مافي فكره النقدي من تجاوز لفهم عصره، واستشراف لجماليات الشعر

المحددة مظهرياً في تلقيه.

٣ ـ ١ ينبني على اهتمام الجرجاني الخاص بالنظم، وعزو المزية إلى ترتيب الكلام داخل النص واستحداث المعاني بواسطة الألفاظ، أن تغدو تلك الألفاظ وسائط تحمل نداء النص أو ايحاءه للمتلقي الذي لم يعد يكتفي بالفهم.

إن البلاغة ليست في الإفهام المجرد. فالنص الشعري ليس رسالة فارغة المحتوى بل هو بناء مقصود.

يؤكد الجرجاني في هذا المقام على ذاتية الفهم والتأويل في اقتراح منا لوصف ملاحظته حول عدم التعويل على علم غيرك [٢ : ٨] والانتباه إلى لطائف مستقاها العقل [٢ : ٦] ودقائق وأسرار، طريق العلم بها الروّية والفكر. وماداست تلك اللطائف أسراراً فإنها لن تنكشف إلا لمن رفعت الحجب بينهم وبينها.

ولايجب أن نعدّ الألفاظ حجباً بين المتلقي وتلك اللطائف النصية. فالجرجاني كما أشرنا لايرى اللفظ إلا قشراً أو حلية.

وإنما الحُجب هي تلك الأعراف التي تنخلق بين النص ومتلقيه. بعضها يخلقه التقليد في النص نفسه. وبعضها يخلقه التقليد في المتلقي. فيحرم من استكشاف تلك اللطائف أو التمتع بها.

ويمكن أن نعد الجرجاني منظّراً لصلة قائمة على القراءة (بين النص والمتلقي). وبذلك يتخلص من أبرز معايب الإلقاء الشفهي وهو الالتفات إلى جرس الألفاظ، وإقامة (السماع) سنداً للصلة بين النص ومتلقيه.

ومايستدعيه هذا السنن من التفات إلى جزئيات النص لا كلياته. والالتفات إلى ألفاظه لا معانيه.

إن موقف الجرجاني من قضية (اللفظ والمعنى) يعطينا الحق في افتراض تلك الصفة لنقده: صفة القراءة التالية للكتابة، وليس السماع التالي للانشاد.

ولاتقف دعوته لتأمل المعنى بالقراءة، عند حدود المتلقي، بل يفترض أن المعنى يقود المتكلم إلى التجنيس والسجع ويعثر به عليها «ولن تجد أيمن طائراً... من أن ترسل المعاني على سجيّتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإذا تُركت وماتريد لم تكبس إلا مايليقُ بها..» [١ : ١٣].

وهذا الحكم يرتب نتيجة خطيرة. إذ سيكون استنباط المعاني حسب مايتيحه النص في مبناه، وليس في متنه غير المتحقق.

أي أن مايصل من الخطاب ليس إلا مايستلزمه المعنى مرسلاً في ألفاظ غير مكررة.. وهذا يتيح تنوع الخطابات، مقابل تكرارها وتقليديتها في الخطاب السائد الذي تقود الألفاظ معانيه في التجنيس والسجع وسواهما.

إن مهمة استنباط المعاني موكلة من ثم بالمتلقي الذي سيعيد الألفاظ إلى معانيها الظاهرة ثم ماتدل عليه من معانٍ ثوانٍ.

٣ ـ ٢ إن ذلك يستدعي فيما يستدعيه أن تكون الألفاظ أعراضاً لجواهر. وظواهر لماهيات.

وتلك إحدى الأعراف التي يبنيها الجرجاني في نظريته.

فمعاملة الألفاظ بكونها زينة أو حلية، أي غلافاً أول، سيحيل القارئ الى مهمة ثانية تنقّب عن الروح في الجسد.

عليه هنا أن يفهم الاشارة والايماء والرمز والتلويح [١ : ٢٣] أو مايسميه الجرجاني في دلائل الاعجاز «الاشارة في خفاء..» أو التنبيه على مكان الخبيّ ليُطلب، وموضع الدفين ليُبحث عنه فيُخرج: [٢ : ٢٩] وهو إذ يشرط القراءة ـ فعلاً أو نشاطاً فردياً بالقارئ ولايلزمه بقراءة سواه كما لايلزم سواه بقراءته ـ فانه ينبه إلى مهمة المتلقي في استنباط مايعرف اليوم بالنص الموازي الذي يوجد إلى جانب النص المتحقق. وهو النص المتخيل أو المسكن.

ويتكون هذا النص من المبنى المتحقق، والتأويلات التي تتيحها الأبنية، وتحث عليها الموجّهات التي تصنع اتجاه القراءة.

كما يدخل اللاشعور في تركيب هذا النص المقروء أو المنتج بالقراءة. ولايعني اللاشعور هنا إسقاط افتراضات

نفسية متعسفة، تفترض النص وثيقة مَرضية تنعكس عليها عُقد المؤلف، بل المقصود (لاشعور النص) حيث يلقي نظام النص بعالم آخر إلى أعماقه ويخطيه بيقظة ألفاظه وحذر عباراته.

إلا ان ماينشكل من رمز أو إشارة أو تلويح أو إيماء يظل منوطاً بالقارئ ليكتشف فضاءه أو يغور إلى أعماق تربته.

هنا سيعثر على (الخبيء) أو (الدفين) بعبارة الجرجاني أو المغيّب والمسكوت عنه أو مالا يقوله النص بتعبير النقاد المعاصرين. وهذا الاستنتاج ينسجم مع نظرية الجرجاني في (معنى المعنى).

فهو يلح على «أن ادراك المخاطَب للمعنى الثاني للعبارة ليس بالأمر الميسور. وأن المخاطب مطالب ببذل جهد عقلي في الاستدلال على المعنى الذي قصد إليه المتكلم..» [٧: ٤٢]

فالقراءة إذن ليست جهداً ذاتياً ساكناً أو غير موصوف. هي ليست اعتباطية. بل تتطلب (الجهد) و (الكدّ) و (الغوص) إضافة إلى الاستعداد الذاتي. وهذا ماندعوه اليوم (مكونات القارئ).

٣ ـ ٣ يغلق نقاد التلقي واستجابة القارئ سؤال جوهري حول درجة وعي المتلقي؛ ومايشترط فيه ليتسنى القراءة المرجوة:

أيحتاج لثقافة منشئ النص ومبدعه ومالديه من وعي؟

أيكتفي بأدواته لاجراء حفرياته في تربة النص بحثاً عن الخبيء والدفين؟

ألا تتفاوت بقدرات القراء المختلفة؛ مستويات قراءاتهم أيضاً ومستويات انتاجهم للنص المقروء؟

إن هذه الأسئلة أثارت المهتمين بالقراءة الذين افترضوا أولاً وجود أبنية خداعة في النصوص؛ توهم قارئها وتجره إلى مساحتها، ثم لايستطيع مجاراة نداتها وموجهاتها.

إنها تقوم أحياناً على المعارضة أو النقيضة، ويتحدد خطابها في المعارضة أو التضمين.. ولكنّ استعداد القارئ وظروف انتاجه للنص المقروء لاتتيح الارتقاء إلى ذلك الخطاب.

هنا يستعين القارئ بقراءاته السابقة أو قراءات سواه. فكما يكون التفاعل النصي قائماً داخل النص نفسه؛ فتفاعل القراءات؛ فيما يسمى اليوم انصهار الأفاق؛ يتيح استثمار خبرات القراءة السابقة.

ولكن العملية هذه تحتاج، إلى فكر وجهد ربما آحتاجها كثير من القراء بسبب العامل الظرفي أو المعرفي أو اللغوي وغير ذلك..

لكنّ مشكلة مكونات القارئ يجب ألا تزهدنا بمطلب القراءة الفاحصة التي لايمل الجرجاني المطالبة بها.

ولتحقيق هذا النظر والتأمل يفترض الجرجاني بضعة مكونات للمتلقي، استطعت استقراء الآتي منها:

ـ تهيؤ ذاتي لادراك المعاني الروحانية والأمور الخفية

ـ طبيعة قابلة لها أو طبع...

ـ ذوق وقريحة يجد لها في نفسه إحساساً بالوجوه والفروق...

ـ معرفة بلطف مواقع النظم حذفاً وذكراً وتنكيراً وتعريفاً وتقديماً وتأخيراً.

ـ عدم اتباع تأويل الآخرين... [٢: ٤٢ ومابعده]

ـ تكرار النظر لرؤية التفصيل

ـ الحاجة إلى الفكر والتأمل والتدبّر [١: ٣١٥، ١٤٧]

ومن آفات التلقي التي تعيق الصلة السليمة بالمعاني النصية، ماذكره الجرجاني سبباً لمراعاة المقام عند النظم: «وسبب ذلك قصر الهمة، وضعف العناية، وترك النظر، والأنس بالتقليد. ومايغني وضوح الدلالة مع من لاينظر فيها، وإن الصبح ليملأ الأفق ثم لايراه النائم ومن قد أطبق جفنه؟» [٢: ٣٤٩]

إن مثال النائم والصبح، رمز بليغ لصلة القارئ الكسول التقليدي بالنص.

فالاشراق الذي يلقيه النص لايجد في المتلقي المغمض عينيه عنه أي صدى؛ كما لو أن الصبح ملأ الأفق؛ وظل الانسان نائماً فهو لن يراه رغم إشراقه.

وهذه الرؤية تتدرج من النظر إلى التأمل والتدقيق والفهم. وكأنها توافق أغلفة النص ومايتطلبه انتزاعها من جهد، وصولاً إلى المعاني الثواني (الخبيئة) أو

(الدقيقة).

فالرمز والوحي والكناية والتعريض والايماء تتم «من وجه لايفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر..» [٢: ٣٥٠]

وبهذا يستطيع «إدراك الغائب والبعيد» في مرتبة يتفاضل فيها القراء «فلا يستوي فيها البليد والذكي والمهمل نفسه والمتيقظ المستعد للفكر والتصوّر» [١: ١٤٨]

ويمثل لذلك بالتنبيه المُحوج الى إدارة الفكر والادراك التفصيلي، كقول الشاعر مشبهاً سقط النار بعين الديك:

وسقطٍ كعين الديك عاورتُ صحبتي
(أباها وهيأنا لموضعها ذكرا)

فاختلاط الألوان يوجب استحضار الحمرة رقيقة ناصعة، والسواد صافياً براقاً. وهو أمر مفصّل لايدركه النظر الاجمالي.

٣ - ٤ إلى جانب القراءة التفصيلية؛ التي تُظهر اختلاط العناصر أو تجسيمها كما في المثال الآنف؛ يدعونا الجرجاني الى أنماط أخرى من القراءة هي جزء من أعراف التلقي. أشير إلى الآتي منها:

القراءة الكلية: ويعني بها انتهاء العبارة لإبانة المعنى. ومثل لها بقوله تعالى «واشتعل الرأس شيباً» فالقارئ لايجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره. [٢: ٣١٢] وهذا مترتب على قوله بالنظم، ورفض نظرية اللفظ وقيام المزية به.

انصهار العناصر: ويعني بها إذابة المفردات داخل النص من أجل الكلّية. فكما أن واضع الكلام مثله «مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة» [٢: ٣١٦] فالقراءة تعطي المتلقي «من مجموع هذه الكلم كلها» معنى واحداً لاعدّة معانٍ.

أما محاولة البحث عن عناصر متحدة محتفظة بصفاتها، فهي أشبه بمحاولة كسر حلقة مفرغة أو سوار بعد أن صَنعها الصائغ من كِسر ذهبية وأذابها ثم صبها في قالب لتخرج بهيأة السوار أو الحلقة المفرغة.

تقفّي القصد في ترتيب الألفاظ حتى يأتي النص على تلك الصورة أو الصنعة. إذ ليس الوزن هو المقصود في الالفاظ «وإنما الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصنعة.» [٢: ٢٧٨]

وهي قراءة غَوْرية أو عُمقية، لاتكتفي بالسطوح. فالألفاظ تؤدي الى المعاني الأوَل والثواني. وهذا يقيد القراءة باستغوار ماوراء الألفاظ. فالمعاني كالجواهر، لابد من إزالة الصدف للوصول إليها. وهذا يرتب نوعاً من الحفر يُدعى اليوم بالقراءة الكشفية أو الكاشفة، تقود إلى درجات من التأويل حسب مقدرة المؤوّل. ويمنحه الاكتشاف متعة نفسية كبيرة.

وتوصف أخيراً بأنها قراءة استعداد. أي ذات شروط لاتقوم في كل قارئ. فكما أن شقّ الصدفة لايتاتى لكل أحد، ويشترط فيه المعرفة، فإن الوصول إلى المعاني عبر القراءات لايتحصل إلا لأهل المعرفة.

ويختلط شرط المعرفة، بالاستعداد الذاتي أو (الخاطر) لدى القارئ. وهو استعداد يتعلق بالذوق أو الاحساس بالمعاني. فالقراءة إذن ذوقية فضلاً عن ذاتيتها.

إن مطلب الحفر وكشف المستور أو المغيّب يُحيلنا إلى الجاحظ الذي يؤثر عنه تشبيهه «المعاني القائمة في صدور الناس» بالاستتار والخفاء وبأنها «محجوبة مكنونة».

إلا ان الجاحظ برهن وصفه بالبث. أي في الجزء المتعلق بالمرسل. أما الجرجاني فيمد ذلك إلى استراتيجية القراءة. أي موضع القارئ في النص ذاته، وهو ينجز فعل القراءة.

٣ - ٥ تحصّل لنا الآن في أنماط القراءة الجرجانية وصفها العام بالكلية والقصدية والفورية والانصهارية (أو الاتحادية في عبارته) والاستعداد الذاتي والمعرفة والذوقية. أضافة إلى المتعة المتحصلة من الاكتشاف. ويبقى علينا التعرف إلى مرجع القراءة عنده.

فهو يرى أن النص إذ يبعث نداءه يستثير فينا كوامن تضاهي كوامنه. وهذا يدعو إلى استذكار نصوص أخرى. ولكن ليس على طريقة النقاد العرب في تسمية السرقات والأخذ والتضمين وأبوابها.

إن الجرجاني يفسّر التداخل بين النصوص أو تفاعلها داخل نصّ واحد؛ بما هو أدق وأبعد من السرقات. ذلك انه اذ جاق اللفظية؛ لم يعد اللفظ لديه مرجعاً يقايس اليه ويشخص انتسابه الأول إلى قائله. بل هو يستقصي المعنى الذي لايراه ـ كما لايراه زملاؤه ـ عارياً يكسى لفظاً من الشاعر فيصير أحق به [٢ : ٣٦٩]

فهو يرفض عُري المعنى وكساء اللفظ. ويقيم بدلهما مبدأ النظم. فيقول في السرقات:

«وجملة الأمر انه كما لاتكون الفضة خاتماً أو الذهب سواراً أو غيرهما من أصناف الحلي بأنفسها ولكن بما يحدث فيهما من الصورة. كذلك لاتكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم. .» [٢ : ٣٧٣]

فهو يقترح تسمية المعاني المتعددة والألفاظ المتعددة مما لايظل معه للسرقة معنى. إذ من المحال إن جارينا اللفظيين أن يناظر البيت بيتاً آخر، فكأنه يناظر نفسه. وحين يصبح النظم مقياساً للسرقات والأخذ وفروعها؛ فإن التمحل سوف يُستهجن ولا تظل له فائدة. لما سيفرضه النظم من صور مختلفة للمعاني والهيئات.

٣ ـ ٦ أخيراً نستطيع القول؛ مطمئنين، أن الكشف عن قيمة المنزلة المخصصة للقارئ في إظهار شعرية النص لايقل أهمية عن كشف مقولة النظم أو المعاني الثواني أو سواها من مقولات الجرجاني: ناقدنا الفذ الذي استبق جمالياً وفنياً الكثير مما يسود خطابنا النقدي المعاصر.

ولعلي محتاج أخيراً إلى لفت الانتباه إلى عبارة الجرجاني التي تتوجه في كتابه إلى القارئ مخاطباً ومحاججاً وداعياً. وكأنه يريد أن يُقيمه في متنه النقدي أيضاً ويشركه فيه، تمهيداً لاهتمامه به منتجاً للنص عبر إعادة تشكيله ●

المصادر والمراجع

● بحث مقدم الى ندوة (نقد الشعر قديمة وحديثة) ـ قسم اللغة العربية ـ كلية التربية ـ جامعة الموصل ١٧ ـ ٢٠/٣/١٩٩٠.

ملاحظة: ـ الكتب ـ في متن الدراسة ـ يذكر رقم المصدر أو المرجع بحسب تسلسله في هذه القائمة. يليه رقم الصفحة. اختصاراً للهوامش.

١ ـ أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني ـ تحقيق هـ. ريتر ـ ط ٢ ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٧٩.

٢ ـ دلائل الاعجاز: عبدالقاهر الجرجاني ـ تصحيح محمد عبده ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٧٨.

٣ ـ البنيوية والنقد العربي القديم ـ د. حسام الخطيب ـ مجلة الموقف الأدبي ـ دمشق ـ العدد ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٩٨٦ ـ عدد خاص [تراثنا النقدي].

٤ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ـ د. إحسان عباس ـ ط٢ ـ دار الشروق ـ عمّان ـ ١٩٨٦.

٥ ـ نافذة الشعر ونافذة النقد ـ ت. س. إليوت ـ ترجمة وتقديم: د. يوسف نور عوض ـ ط١ ـ دار القلم ـ بيروت ـ ١٩٨٢.

٦ ـ قراءة في القراءة ـ رشيد يحياوي ـ مجلة الفكر العربي المعاصر ـ باريس ـ العدد ٤٩ ـ ١٩٨٨ ـ النقد والمصطلح النقدي: عدد خاص

٧ ـ قراءة في معنى المعنى عند عبدالقاهر الجرجاني ـ د. عز الدين اسماعيل، مجلة فصول ـ العدد ـ ٣ ـ ٤ ـ ١٩٨٧ ـ القاهرة عدد خاص: قضايا المصطلح الأدبي.

٨ ـ المتخيل الضمني في التراث النقدي ـ شكري المبخوت ـ مجلة الحياة الثقافية ـ تونس ـ العدد ٤٨ ـ ١٩٨٩.

٩ ـ مدخل الى السيميوطيقا ـ انظمة العلامات ـ إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد ـ ط١ ـ دار الياس العصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٦.

١٠ ـ معجم النقد العربي القديم ـ جـ٢ ـ د. أحمد مطلوب ـ ط١ ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ ١٩٨٩.

١١ ـ المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ـ وليم راي ـ ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز ـ ط١ ـ دار المأمون ـ بغداد ـ ١٩٨٧.

١٢ ـ نظرية المنهج الشكلي ـ نصوص الشكلانيين الروس ـ ترجمة ابراهيم الخطيب ـ ط١ ـ مؤسسة الابحاث العربية ـ الشركة المغربية ـ بيروت ـ الرباط ـ ١٩٨٢.

● ● ● ● ● ●